

النظام النسقي للفهم الديني

يحيى محمد

ظهر في أيامنا الحالية نظام حديث للفهم الديني يرى ان القرآن الكريم منزلٌ ومحفوظ بهذا الشكل الذي نقرأه دون زيادة حرف أو نقصان، اذ يمتلك نظاماً دقيق الإتساق، فكل حرف وكل كلمة لها معناها الحقيقي الخاص الذي لا يجاريها كلمة أخرى أو محل آخر، فكل شيء موضوع في محله بقدر دقيق لا يقبل التغيير، فأى تغير مهما كان بسيطاً فإنه يضرب النسق ويتجاوز الإتساق، ومن ثم يفضي إلى تغيير معنى الكل، حتى الحرف والعلامة لهما موقعهما الذي يخصهما. وبحسب هذا الاتجاه فإن معاني الألفاظ هي معان حقيقية غير مجازية. وبرز من يمثله: المهندس محمد شحرور من سوريا، والمرحوم المهندس عالم سبيط النيلي من العراق، وجمعية التجديد الثقافية الاجتماعية من البحرين. وهو يتعامل مع النص القرآني بجملة من القواعد والاعتبارات ليدل على نسقيته وإتساقه، أهمها ما يلي:

- 1- التعميم، بمعنى ان كل لفظ يحتفظ بمعناه الخاص في جميع ما يذكر من دون تغيير.
- 2- لا ترادف في اللغة، بل على العكس فإن البعض يصرح بأن كل لفظ له معان عديدة، ولا بد من انتقاء المعنى المناسب وسط كثرة المعاني للفظ. أي ان القارئ يختار للفظ معنى مناسباً يعتقد أنه يمثل حقيقة ما يراد ضمن نسق الكل دون ان يبالي بأراء المفسرين.
- 3- ان الترتيب ووضع الكلمات يفرض على القارئ ان يجد فيهما علاقة مهمة حول المعنى المقصود. (النص الذي يقول) ((: الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ))، يختلف في معناه عندما نغير الترتيب بالقول مثلاً: المؤمنات والمؤمنون).

على ذلك يمكن محاكمة هذا الاتجاه من خلال لحاظ ان كان ما يدعيه يتفق مع معان النص وسياقاته أم لا؟ وكذا ان كان مدفوعاً بهواجس معينة علمية أو مذهبية أو غيرها؟

فالميزة الأساسية لهذا الاتجاه هي الكشف عن النظام النسقي ضمن فهمه لألفاظ القرآن وعلاقاتها وفق المعاني الحقيقية بانتظام، ويمكن إختباره عبر ما يمثلون عليه من تطبيقات إن كانت دقيقة أو غير دقيقة. فمثلاً يميز المهندس محمد شحرور بين معنيي النبي والرسول، ومثلها الصلاة والصلوة، وفق الإستقراء القرآني كما هو المدعى، فيرى في كتابه (الكتاب والقرآن) ان الرسالة أحكام، والنبوة علوم، لهذا لا نجد آية تقول (اطيعوا النبي)، فكلها جاءت (اطيعوا الرسول). مع ان القرآن الكريم يتضمن الكثير من الآيات التي تربط النبي بالاحكام، كما تربط الرسول بالعلوم أو الحقائق الموضوعية. وكان هذا ما لا يلاحظه ان نص

ومن النماذج على ذلك أيضاً تمييز هذا المفكر من الناحية المورفولوجية بين لفظي صلوة بالواو دون

تَجَهَّرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تَخَافُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (، وقوله): فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ((، وقوله تعالى:))

واستشهد هذا الاتجاه على ما جاء في سورة

وَأَنَا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ () ، وقد عمّت هذه الحالة على السورة كلها، بل والقرآن كله، وهو أن المتكلم ليس الله بل الملائكة المَدْبُورُونَ الكاذبي يشار إليهم بصيغة الجمع في الكثير من النصوص والمواقف، ولو على لسان جبريل كتمثل لله. أما الله فكلّما ليس مباشراً وفقاً لما جاء في الآية () : وَمَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ () . رغم أن هذه الآية تحصر كلام الله في ثلاثة أمور أحدها الرسول كقوله، ولم يأت فيها ذكر للرسل جميع إذا ما أخذت بنحو الحقيقة من دون مجاز كما يتطلب بذلك الاتجاه المذكور. والآية تتسق مع بعض الآيات التي تبدي أن هذا الرسول المبلغ هو جبريل.

بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)) (ومثل هذه النصوص) (١٠٠): يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ..وَأْمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ((..)) قَسْرٌ عَائِدٌ، الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ الْقَوْلَ قَسْرًا

وبذلك يتبين ليس هناك ما يدل على ان المتكلم منحصر في الجماعة دون الفرد، فكلاهما حاضرا بحسب الاساليب اللفظية.

ويتمثل موضع استثمار الاتجاه المذكور لهذه القضية بالتأكيد على ان صيغة الجمع للضمائر التي تتحدث عن نفسها تضيف في الوقت ذاته افعالاً وصفات هي ذاتها منسوبة إلى الله تعالى، مثل حال الخلق والرزق والعلم والتعليم والقدرة وما إلى ذلك. فعندما تتعلق هذه الافعال والصفات بصيغة الجمع فإنها وفق هذا الرأي لا تشير إلى الله كما يزعم المفسرون، بل إلى ملائكته المدبرين. فهناك إختلاف حين يكون الفعل من أعلى إلى اسفل وبالعكس، ففي الخلق والرزق والتعليم وسائر أمور التأثير على الخلق فإن صيغة الجمع في الخطاب هي الواردة للتأكيد على

الدور الجماعي، وهو ما يؤديه ملائكة الله المدبرون، دون ان يتنافى مع ما يذكر لصيغة الفرد أيضاً، لأنها تكون باذن منه تعالى. في حين عندما يكون الله مدعواً معبوداً من قبل عباده، فإنه يتبين بالإستقراء بأن صيغة المفرد في الخطاب هي الواردة مطلقاً دون غيرها.

لكن الملاحظ ان القرآن الكريم ينسب الخلق تارة لضمير الجماعة وأخرى لضمير الفرد، ومثل ذلك: الرزق والعلم والقدرة والجزاء وتنزيل الكتاب والايات والمرجع الذي يرجع إليه.. وهكذا مختلف الأشياء المتعلقة بالفعل والتأثير. وبالتالي إذا كان موضوع التأثير والصفات واحداً كالخلق والرزق والعلم وما إلى ذلك، فكيف يمكن ان ننسبه بإعتبارين مختلفين من دون القيام بممارسة التوجيه والتأويل، تارة وفق صيغة المفرد، وأخرى وفق صيغة الجماعة، فنعتبر الدلالة الجمعية لا تتنافى مع الدلالة الفردية، رغم عدم ذكرهما للتبيان ضمن سياق النص الخاص؟

وبعبارة ثانية، يعترض هذا الاتجاه على المفسرين لتوجيههم الدلالة الجمعية لصالح الدلالة الفردية، مع انه يمارس التوجيه أيضاً، وهو انه يوجه الدلالة الفردية بما لا يتنافى مع الدلالة الجمعية، وكذا العكس أيضاً. أي في جميع الاحوال هناك نوع من التوجيه والتعامل مع النصوص بنحو من المجاز. فمثلاً إذا كان التعبير عن خلق السماوات والأرض بضمير المفرد تارة، وبالجماعة تارة ثانية، فمن خلق السماوات والأرض هل الله، ام ملائكته المدبرون؟ فاذا كان الافتراض الأول هو الصحيح فلماذا جاءت صيغة الخالق بضمير الجمع ان لم يكن هناك مجاز في اللغة المستخدمة؟ واذا كان الافتراض الثاني هو الصحيح فلماذا تم حصر الخالق بضمير المفرد؟

ومن الطبيعي انه سيقال بأن كلا التعبيرين صحيح، وهو ان اثبات الفرد لا ينفي اثبات الجمع، والعكس صحيح أيضاً، إذ وفق نظرية الاذن يكون الخلق منسوباً لله بشكل غير مباشر، وللملائكة بشكل مباشر، شبيه بالذي تعرض إليه الفلاسفة القدماء من ربط الخلق بالله كعلة بعيدة وبعض معلولاته كعلة قريبة، مع أخذ إعتبار الفارق بين الاتجاهين، لكن لماذا لا يتوضح شأن هذا الترتيب؟ مع انه موضح في أمور أخرى، كارسال الملائكة لتوفية النفوس وتبليغ الرسالات والقتال مع المؤمنين وغيرها، في حين لم يذكر للملائكة أي دور يتعلق بالخلق والرزق مثلاً.

وقد جاء في هذه الآية ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ)) . وعليه فإن الأصل في الموضوعات المطروحة السابقة متعلقة بالله وحده كما تشير الآيات ذات الصيغة الفردية بوضوح، ويبقى الزائد عليها لا يرقى إلى هذا الوضوح، إذ لا توجد آية تشير إلى تكليف الملائكة بالخلق وبعض الشؤون المتعلقة بالعباد. وهو أمر ينسجم مع تكفير الله لمن يجعل الملائكة أرباباً كما في قوله تعالى ((وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)) . (واحياناً تشير بعض الآيات إلى استنكار من يشرك مع الله أحداً في خلقه، مثلما جاء في قوله تعالى ((أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا فَتَضَاهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الرَّاحِمُ الْكَرِيمُ))).

بل ان الروح العامة للقرآن ككل تبدي بأن دلالة الخلق لا تتعدى العلاقة بالله وحده؛ مثلها في ذلك مثل العبادة. لهذا من الصعب تماماً ان نعتبر انفسنا مخلوقين لملائكة الله المدبرين، في حين لا يصعب ذلك عندما نعزو إليها توفية أنفسنا عند الموت مثلاً.

ولو استندنا إلى هذه المنهجية لفهم الآيات فسوف لا نأمن من السقوط في بعض المفارقات، ويتضح

ونبقى مع قضية خلق البشر، فقد وردت حولها صيغتا المفرد والجمع معاً ضمن سياق واحد لدى هاتين الايتين)) : وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِلآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)) (، وهنا يرد السؤال التالي:

0000 0000 0000 0000 00000000 0000000 00 00000000 000 0000 00
 0000 00 0000000 000000 000 0000 00000000 000 0000000 0000 000000
 00000000 000000 0000 000 00000000 0000 00 000 0000 000000

وبعبارة اخرى أيهما اقرب للتوجيه، ان يكون الأمر في الآيتين عائداً إلى طرفين احدهما الملائكة المدبرون إذ تأمر غيرها من الملائكة الباقين، والاخر هو أمر الله، أو يكون الأمر في الحالتين هو الله تعالى.. فالسياق وحتى منطق مبدأ البساطة يستدعي ان الأمر في الحالتين هو الله..

وهو ما ينطبق على موضوع الخلق في الآيتين السالفتي الذكر أيضاً، فقد جاء في ذات السياق ان خلق ادم وذريته منسوبة لله بصيغة المفرد تارة، كما في الآية الأخيرة ((وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ))، ومنسوبة بصيغة الجمع تارة اخرى، كما في الآية ((وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ)) ((وواضح ان السياق دال في الحالتين بأن الخالق واحد غير متعدد .فمن الصعب إفتراض الخلق منسوباً إلى جهتين مختلفتين هي الله تارة والملائكة تارة ثانية، فالسياق لا يساعد على مثل هذا التوجيه خلافاً للظهور الأول لسلطته.

كما قد ترد احياناً صيغة ضمير الجمع في خلق الملائكة باطلاق اللفظة الأخيرة كما في الآية.

((أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ)) ، فتشير في ذلك اشكالا على الاتجاه المذكور، إذ وفقاً له سيضطر إلى تأويلها بمعنى أن بعض الملائكة وهم المبدعون قاموا بخلق سائر الملائكة.. وهو تأويل بعيد مقارنة بما هو متعارف عليه من استخدام ضمير الجمع للدلالة على المفرد. ويمكن أن نطبق عليه نفس منطق ما يجادل به هذا الاتجاه فنقول: لماذا استخدم القرآن ضمير الجماعة وهو يتحدث حول خلق الملائكة باطلاً، مع أن بعضهم وفقاً للاتجاه المذكور خالق للبعض الآخر؟ فكيف ينسجم ذلك مع كون القرآن هو الكتاب العربي المبين؟

وفي جميع الاحوال يتبين ان نظام الفهم النسقي المطروح حالياً ليس بنسقي.

¹ محمد شحرور: الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة، الاهالي للنشر والتوزيع، دمشق، ص. 112

² من ذلك الآيات التالية: ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)).. ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ.. مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ.. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ)).. ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.. النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)).. ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا)) (... الخ.

³ مثل قوله تعالى: ((أَمَّا الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكَ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا تَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ)).. ((الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بَقَرَبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)).. ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ)).. ((إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ)).. ((وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرُّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)).. ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)).. ((وَقَالُوا مَا هَذَا الرُّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ)).. ((كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ)).. ((وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)) (... الخ.

⁴ الاسراء 110.

⁵ الماعون 4-5.

⁶ المعارج 22-23 و34.

⁷ جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية: مفاتيح القرآن والعقل، ضمن سلسلة عندما نطق السراة (1) ، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2009م، القاعدة السابعة (الضمائر في القرآن).

⁸الصفات 164-166.

⁹الشورى 51.

¹⁰الواقعة 75.

¹¹البقرة 40-41.

¹²الزمر 17-18.

¹³المائدة 3.

¹⁴فاطر 3.

¹⁵آل عمران 80.

¹⁶الرعد 16.

¹⁷الواقعة 57.

¹⁸ص 71-73.

¹⁹الاعراف 11-12.

²⁰الصفات 150.